البـــاي محمد الكبير- باي وهران :1797-1779

حياته وسيرته.

أ/ بلبروات بن عتو

الباي محمد بن عثمان الكردي أو الباي محمد الكبير كما هو شائع عنه، رجل من رجالات الجزائر العثمانية الذين ساهموا في صناعة تاريخها في أواخر القرن الثامن عشر إذ حكم بايليك الغرب بصفة بـــاي مـــن 20 جمادى الثانية 1193 هـــ إلى 25 جمـــادى الأولى 1212 هـــ (جويلية 1779م إلى نوفمبر 1797م)، وتميز عن بقية البايات بأعماله التي عبرت بوضوح أن الرجل كان مسايرا لمشروع حضاري تغذيه حركة إصلاحية عاشت المخاض في عهد الداي محمد بن عثمان باشا 1766م – 1791م.

لم يترك لنا الباي محمد الكبير مذكرات عن حياته، رغم أنه اهتـــم بحركة النسخ والتأليف، لكننا حاولنا نسج الخطوط العريضة لحياته من خلال مؤلفات موظفي ديوانه[1] آملين في التعريف بالرجل الذي يكاد يجهل لدى الجزائريين، والإجابة عن تساؤلات من لهم اهتمامات بالشخص المدروس[2] بالكيفية التالية:

I – مولده ونسبه: ولد الباي محمد الكبير بمليانة، التي كانت تحت قيادة والده عثمان الكردي، ولا يمكننا تحديد تاريخ ولادته بدقة، إلا أن الخزندار "تدينا Thédenat"[3] قدّر عمر الباي محمد عند أول لقاء به في قصره عام 1779م بين أربعين وخمس وأربعين سنة أي ولد بين 1734 و1739م.

---

*– أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ- جامعة سيدي بلعباس.

4– حول حياة هذا الباي ودوره راجع: بلبروات بن عتو، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري (1779 –1796) رسالة ماجستير، قسم التاريخ، وهران، نوفمبر 2003.

5– خوجة، حمدان بن عثمان، المرآة (تقديم وتعريب وتحقيق الزبيري العربي)، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 149.

5- Chabaud. "Attaques des batteries Algériennes par Lord Exmouth en 1816". R.A, 1875, p.195.

6– حول موضوع الثورات الشعبية ضد الحكم العثماني راجع:

7– الغالي، الغربي، الانتفاضات الشعبية في الجزائر منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، دمشق، 1985.

8– بوشنافي محمد، الجيش الانكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر 1700– 1830 (رسالة ماجستير)، قسم التاريخ، وهران، 2002. ص.ص 184-196.

9– شالر، وليم، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816–1824) (تعريب وتعليق وتقديم العربي اسماعيل)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 172.

10– خط همايون 22474، المركز الوطني للأرشيف، الجزائر.

11– الزهار، أحمد الشريف، مذكرات نقيب أشراف الجزائر (تحقيق المدني أحمد توفيق)،الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 132.

12– حمدان، خوجة، المصدر السابق، ص 153.

13– الزهار، أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 134.

14– د.فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث (من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي)، بمطابع ألف باء، الأديب، دمشق، 1969، ص 86.

15- Gaïd, Mouloud. L'Algérie sous les trucs 2ème éditions. Edition Mimouni, Alger, 1991, p.178.

16– الزهار، أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 136.

17– المرجع نفسه، ص 136.

18- Boyer, Pierre. La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, librairie Hachette, Paris, 1963. p.p. 95, 96.

19– حول يحي آغا راجع:

Robin (N). »Note sur Yahia Agha ». R.A., T 18, 1874, p.p.59,75.

20– أنظر:

- Boyer Pierre. Op. Cit.p 96.

21- Grammont (H.D de). Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830). Ernest Leroux, éditeur, Paris, 1887. p.p., 381-382.

Boyer Pierre. Op.Cit. p.96.

22– الزهار، أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 132.

23– حمدان، خوجة، المصدر السابق، ص 153.

24- Ernest, Watbled. " Pachas- Pachasdey"- R.A. n° 17, 1873. p.412.

25– الزهار، أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 144.

وتجمع المصادر التي طرقت إلى سيرة الباي محمد الكبير أنه ابن عثمان الكردي، وبذلك يظهر أنه ينحدر من السلالة الكردية المستقرة بتركيا[4].

II– نشأة الباي محمد الكبير وتكوينه:

أ – نشأته: تربى الباي محمد الكبير في بلاط الحكم العثماني، تحت كفالة أبوين هما :

أ – أب بالصلب: وهو عثمان الكردي الذي ارتقى من منصب قيادة مدينة مليانة– التي صنفت ضمن أشرف المناصب لدى دار السلطان قبل انتقالها إلى بايليك الغرب في أوائل القرن الثالث عشر– إلى منصب باي التيتري، الذي كان مـــن أعظم المناصب وأكبر الرتب بعد منصب الداي [5]، ولمحت المصادر إلى السيرة الحسنة للباي عثمان الكردي تجاه رعيته، وذكرت اشتغاله بتحريك الغوازي ضد الأعراب العصاة، وحرصه على جمع الأموال من قبائل التيتري من أجل تلبية مطالب ديوان الجزائر، وأدت كثرة خروجه لقتال القبائل العاصية إلى قتله في غزوة حركها ضد قبائل أولاد نايل[6].

ب– أب بالكفالة: تعهد الباي إبراهيم أن يكفل أسرة صديقه الباي عثمان الكردي (المقتول)، سواء في المدية أو في معسكر إثر تعيينه بايا على الغرب، وصار محمد الأكبر هو المحبوب عند الباي إبراهيم والمفضل على أخيه محمد الأصغر، وازداد قربا إليه بالمصاهرة حيث زوجه ابنته "فاطمة" [7] حتى بلغ به الأمر إشراكه في أمور الحكم.

II – تكوينه:

1 – تكوينه العلمي: لا نصادف مؤرخا جزائريا أو أجنبيا ينفي غزارة علم الباي محمد الكبير، ويتراءى لنا أن الباي عثمان الكردي ومن بعده الباي إبراهيم قد اهتما بتكوين الباي محمد الكبير وسائر أفراد العائلة في المدية ثم في معسكر عقب انتقال الباي إبراهيم إليها، إذ من عادة أبناء الحكام أن يتلقوا تعليما في القصر، ولا نستبعد أن يكون الباي محمد قد سافر إلى مصر والحرمين الشريفين وخالط علماءها؛ وأخذ عنهم ما وسّع مداركه العلمية، وربما كان ذلك في إطار أداء فريضة الحج. وما عرف عنه أنه كان ملما بالعلوم الشرعية، واللغة العربية وما يتصل بها من بلاغة وعروض ونحو، ومطلعا على المصادر التاريخية وبخاصة المتعلقة منها بالتاريخ الإسلامي، إلى جانب اهتمامه بالشعر والأدب والطب والمخطوطات العسكرية، وإتقانه للغة الإيطالية، وقدرته على التكلم باللغة الفرنسية[8]، وتحكمه في اللغة العثمانية، واشتغاله في الإدارة.

2 – تدريبه على الفروسية:

تلقى الباي محمد الكبير تكوينا في مجال الفروسية وظهرت خبرته في امتلاك الخيول العتيقة وركوبها وهي الخيل الجيدة غير المهجنة[9]، وكان يخرج للصيد ويطارد الحيوانات المتوحشة دون أن يجهز عليها[10]، ولا يصطحب معه الكلاب السلوقية، لأن غرضه هو إمتلاك طرائق مطاردة العدو الإسباني والقبائل العاصية.

III – صفاته:

إتفقت المصادر العربية والأوروبية على الصفات الحميدة للباي محمد الكبير[11]، وهي نافذة لاكتشاف جوانب شخصية هذا الرجل كحاكم متنور في عصر الأنوار، ونخوصلها في النقاط التالية:

*– الالتزام بالشورى.

*– إحترام أهل الذمة وأهل الصلح.

*– الصفح عن المذنبين التائبين .

*– الوفاء بالوعد والتعجيل بالمعروف.

*– الجود والسخاء.

*– التعرض إلى كل من أساء إلى الإســـلام قولا أو فعلا سواء كانوا يهودا أو نصارى أو منافقي الأمة الإسلامية.

*– الحزم والشجاعة.

*– الخبرة الحربية.

*– الحلم.

IV – أوصافه الذاتية وكناه وألقابه:

1 – أوصافه الذاتية:

كتب الآغا بن عودة المزاري، أن الباي محمدا الكبير كان رجلا جسيما بالتجدير، ومتوسط القامة[12]. أما الخزندار الفرنسي "تدينا" فقد وصفه بالرجل الوسيم الوجه، لحيته سوداء، تصل صدره، وشواربه طويلة ممتدة نحوكتفيه على الطريقة التركية[13].

2 – كناه وألقابه[14]:

أ – الكنى: تكشف عن أسماء أولاده الذين كان لهم مكانة بين صفوف العلماء وأهل ثقافة فنجد: أبوعثمان تنكية بأكبر أولاده "عثمان" وأبو علي، وأبو محمد، وأبو أحمد.

ب– الألقاب: ظهر جلها عقب فتح وهران عام 1792م؛ فنجد: محمد الأكحل، المنصور لله أبو الفتوحات، أبو الفتح، أبو المواهب، أبو الربيع، المجاهد، وأبو الفضائل والإحسان.

V – ثروته: إجتهد الباي محمد الكبير كسائر البايات، في جمع الأموال وتنمية ثروته – التي ورث جزء منها من والده– مستغلا جاهه وسلطته، وغرضه تقويه أركان حكمه ومواجهة نوائب الزمان، فكان من أغنى البايات في أيالة الجزائر، ومكنتنا المصادر والوثائق من الإطلالة على حجم أملاكه وأرزاقه فوجدنا أنه إمتلك:

*– ستة ديار.

*– خمس وثلاثون حانوتا.

*– طاحونتان مائيتان لطحن الحبوب.

*– حمام واحد وفرن واحد.

*– منبعان مائيان.

*– فندقان أحدهما قديم والآخر جديد.

*– بستان فسيح به برج ومعصرة لزيتونه وبيوت للوافدين عليه.

*– الذهب والجواهر والأحجار الكريمة واللؤلؤ واليواقيت.

*– السيولة النقدية.

*– الخيول الأصيلة والطيور الجارحة.

*– الأغنام والأبقار.

VI تدرجه في الحكم :

1–قيادة قبائل فليتة: 1765م – 1769م: اشتغل الباي محمد الكبير أولا في الإدارة الإدارية بقصر الباي إبراهيم بمعسكر، ولما أظهر نجابة، ارتقى إلى منصب قائد لقبائل فليتة سنة 1765م، واستقر القائد محمدا بزمورة في شرق غليزان، حيث تتوفر على حصن عسكري في سفريتان[16]، ودامت قيادته لقبائل فليتة إلى نهاية 1769م، وصاحب هذا المنصب، ترقية إلى [17]

2 – تدريبه على الفروسية:

تلقى الباي محمد الكبير تكوينا في مجال الفروسية وظهرت خبرته في امتلاك الخيول العتيقة وركوبها وهي الخيل الجيدة غير المهجنة[9]، وكان يخرج للصيد ويطارد الحيوانات المتوحشة دون أن يجهز عليها[10]، ولا يصطحب معه الكلاب السلوقية، لأن غرضه هو إمتلاك طرائق مطاردة العدو الإسباني والقبائل العاصية.

III – صفاته:

إتفقت المصادر العربية والأوروبية على الصفات الحميدة للباي محمد الكبير[11]، وهي كافية لاكتشاف جوانب شخصية هذا الرجل كحاكم متنور في عصر الأنوار، ونحوصلها في النقاط التالية:

*– الالتزام بالشورى.

*– إحترام أهل الذمة وأهل الصلح.

*– الصفح عن المذنبين التائبين .

*– الوفاء بالوعد والتعجيل بالمعروف.

*– الجود والسخاء.

*– التعرض إلى كل من أساء إلى الإســـلام قولا أو فعلا سواء كانوا يهودا أو نصارى أو منافقي الأمة الإسلامية.

*– الحزم والشجاعة.

*– الخبرة الحربية.

*– العلم.

IV – أوصافه الذاتية وكناه وألقابه:

1 – أوصافه الذاتية:

كتب الآغا بن عودة المزاري، أن الباي محمدا الكبير كان رجلا جسيما بالتجدير، والوسط القامة[12]. أما الخزندار الفرنسي "تدينا" فقد وصفه بالرجل الوسيم الوجه، لحيته سوداء، [illegible]، وشواربه طويلة ممتدة نحو كتفيه على الطريقة التركية[13].

VII – وفاته ومصير عائلته:

توفي الباي محمد الكبير في مساء يوم الأربعاء 25 جمادى الأو لى 1212م الموافق لـ15 نوفمبر 1797م[21] وهوراجع من مدينة الجزائر، بعد أن أدى دنوشه وأتم الثمانية أيام من الضيافة لدى حضرة الداي حسن، وذكر أحمد الشريف الزهار أنه توفي ببلاد قبيلة السائح بن خضرة، كبير أولاد قصير، قرب مازونة، وحمله أولاده ميتا إلى وهران، ودفن بمدرسة خنق النطاح، مقابل جبهة البحر، وذلك بأمر من ابنه الأكبر «عثمان» وتبقى أسباب وفاته الحقيقية غامضة إلى يومنا هذا.

وبشأن رموز عائلته، فقد تداول أولاده وشقيقه على منصب باي الغرب الجزائري من بعده على التوالي، وانتهت حياتهم بالقتل، وهم:

*– الباي عثمان بن محمد بن عثمان الكردي الملقب بالأعور: 1797م – 1804م.

*– الباي محمد بن محمد بن عثمان الكردي الملقب بالمقلش: 1805م – 1808م.

*– الباي محمد الصغير بن عثمان الكردي الملقب بالرقيق، والمسلوخ، وأبوكابوس: 1808م – 1813م.

خلاصة القول أننا حاولنا في هذه المقالة المختصرة تقديم صياغة مبسطة تحاور حياة الباي محمد الكبير، ومحطات مسيرته السياسية والحكومية بغية تسليط الضوء على شخصيته كحاكم عثماني متنور قاد مشروعا حضاريا في حدود منطقة حكمه[22]، وفي فترة حساسة، كان العالم خلالها يشهد تحولات كبرى تركت آثارها خلال القرن التاسع عشر.

الهوامش:

1 – أبرز موظفي ديوانه الذين دونوا أمجاده هم: أحمد بن هطال التلمساني صاحب رحلة الباي محمد بن عثمان إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، والمصطفى بن عبد الله بن زرفة كاتب الرحلة القمرية في السيرة المحمدية وابن سحنون الراشدي مؤلف الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني.

2 – لا يزال التساؤل قائما حول حياة ومسيرة الباي محمد الكبير في بعض الجرائد الجزائرية طالع:
Chaïla, AL Houari. "Balade dans le temps". Journal, L'Echo d'Oran, N° 39, Samedi 2 Septembre 2000, P 04.

3 – " تدينا دوفانت Thedenat Duvent " أسير فرنسي في الجزائر العثمانية بين 1779م – 1782م، اشتراه في بداية الأمر أحد اليهود المستقرين بمدينة الجزائر، ولما كان لا يعرف سوى الكتابة، باعه لوكيل الباي محمد الكبير، لينقله إلى معسكر حيث استقبله الباي بقصره، وأوكله منصب خزندار أو أمين المال إلى أن وصلت فديته من مدينة الجزائر سنة 1782م.

4 – حجاج ميلود– الباي محمد بن عثمان، محرر مدينة وهران " مجلة المتحف الوطني أحمد زبانة، وهران، ص 28

5 – ابن سحنون الراشدي، أحمد بن علي.الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني. تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973م ص 125.

6 – مؤلف، مجهول. تاريخ الباي محمد الأكحل أو تاريخ استرداد وهران من الاسبان. مخطوط مودع بالمكتبة الوطنية الفرنسية، تحت رقم 5022، ورقة 01 (ظ).

7 – نفس المصدر والورقة.وعثرنا على اسم زوجته التي يظهر أنها الزوجة الأولى والمفضلة على باقي الزوجات في: الزياني، محمد بن يوسف. دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران. تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الشـــركة الوطنيـــة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 203.

8 - EMerit,Marcel. "Mémoires de thédenat natif d'Uzès en langedoc écrites à Zurich en 1785." in Revue Africaine, 1948,p164.

9 – ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 341. وذكر أن الخيل الهجين هوما كان أبوه عربيا وأمه أعجمية.

10 – المصدر نفسه، ص 378.

11 – انتقينا هذه الصفات من جميع المؤلفات التاريخية التي طرقت سيرة الباي محمد الكبير.

12 – المزاري آغا، بن عودة اسماعيل. طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر. تحقيق: د/يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، الجزء الأول، ص 290.

13 - EMerit, Marcel. "Mémoire de thédenat ..." op. cit. p163.

14 – توزعت هذه الكنى والألقاب عبر المصادر التاريخية العربية التي اهتم أصحابها بتخليد أمجاد الباي محمد الكبير.

15 – أهم وثيقة أرشيفية عثرنا عليها بصدد البحث عن أملاك الباي محمد الكبير، تلك المدرجة ضمن سجلات المحاكم الشرعية علبة 108– 109،رقم 47/30، 1244-1828م، بالمركز الوطني للأرشيف، الجزائر العاصمة.

16 – RINN,L. Le Royaume d'Alger sous le dernier dey. Alger, 1990. p53.
والسفرية أو السفرة: مجموعة عسكرية انكشارية مستقرة يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة عشر وستة عشر جنديا.

17 – ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 125.

18 – كانت مليانة مقرّ خليفة القطاع الشرقي لبايليك الغرب بعد أن كانت سابقا مقر قائد بايليك التيتري.

19 – نشرت العديد من الدراسات التاريخية باللغة الفرنسية حول حملة أورييلي O'reilly بالمجلة الافريقية للأعوام التالية: 1858، 1861، 1864، 1865، 1867.

20 – الباي حاج خليل 1776 – 1779م: من أغنياء أيالة الجزائر، عينه الديوان بمدينة الجزائر بايا للغرب الجزائري رغبة في ضم أمواله إلى بيت المال، وقد واجه تمردا عسكريا درقاويا بتلمسان عام 1779، وتضاربت المعلومات حول أسباب وفاته.

21 – Feraud, Charles. "Ephémérides d'un secretaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1805". In Revue Africaine, 1874, p 313.

22 – يمكنك مطالعة جوانب المشروع الحضاري للباي محمد الكبير في: بلبروات بن عتو. الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779م – 1797م. رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة وهران، 2002.

المصـــادر الـــدينية المشتركة بين مصر والمغرب القديمين

–الجزء الثاني–

أة/ العقون أم الخير

– الرسوم الصخرية وحيوان الكبش:

لقد انتشرت الرسوم الصخرية لحيوان الكبش وعلى رأسه شكل حلزوني، وأحيانا دائري يشبه قرص الشمس في كل شمال إفريقيا أو ليبيا (قديما)، وهي أوفر وأغزر عددا في الأطلس الصحراوي [1]، وأشهر كبش في تلك الرسومات هو ما ينسب إلى "بوعلام" في البيّض جنوب وهران، ثم كبش فجّة الخيل (بقسنطينة)؛ وكبش عين ناقة (بالجلفة).

ولقد اعتمد المتخصصون في تصنيف هذه الرسوم على تقنيات الحفر المتبعة بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى مؤشرات أخرى مثل عملية الزّنجرة (لون الرسم)؛ فأرجعوا أقدمها إلى العصر الحجري الحديث، وإن كان هناك من يعتقد بأنها تعود إلى فترة أقدم أي إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ولكن باكتشاف بعض الهياكل البشرية والأدوات الحجرية التي تعود إلى أصحاب هذه الرسوم، تمكن الباحثون من حسم الأمر باستخدام الكربون المشع (C14) الذي أعطى لها عمرا يقدر بـــ 5000 سنة ق.م [2].

وتفسير حرص سكان المغرب القديم على رسم حيوان الكبش بكثرة؛ وأحيانا قليلة جدا، أو حيوان البقرة أو الثور؛ وفي كل المواقع , بأن هذا الحيوان كان محل عبادة قد تكون الشمس؛ وأن الكبش قد اتخذ كرمز لها.

وهـــذا الاعتقاد يشكل شبه إجماع عند معظم الباحثين، غير أن هناك من يرى بأن هذه الكباش هي عبارة عن قرابين للتضحية وليست المعبود نفسه؛ ودليلهم في ذلك ظهور الكباش في

*– أستاذة التاريخ القديم بقسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران-